الحديث العاشر

الصدام مع الولايات المتحدة الأمريكية

ولا يسكتون...
كلما ضاعت منهم حجة جاءوا بغيرها، وكلما طاش لهم سهم فى الفضاء أسرعوا إلى الجعبة يبحثون عن سهم آخر ويصوبون!

- لقد بادر الولايات المتحدة الأمريكية بالعداء، ولم يعطها نفشا حلواً، ولا طالعها بوجه مبتسم... ما لنا نحن والولايات المتحدة وهى القوة الأعظم القادرة على النفع والضرر... ثم ماذا كانت نتيجة عدائه لها غير انحيازها الكامل إلى جانب إسرائيل وغير ضغوطها علينا تشتد حتى كسرت لنا الضلوع؟!

ونسأل.

- هل فعل جمال عبدالناصر ذلك، وهل اندفع فعلاً كالثور الأحمق إلى معركة غير متكافئة؟

وتقول لنا نظرة واحدة على خريطة أحداث الشرق الأوسط منذ سنة ١٩٥٢أن ذلك لم يحدث... بل الغرابة أن ما حدث هو عكس ما يقولون.

لقد بدأ جمال عبدالناصر دوره على الساحة المصرية والعربية وهو يحسن الظن كثيراً بالولايات المتحدة الأمريكية ومبادئها وسياساتها، وكانت الورقة الأمريكية فى ظنه- ذلك الوقت- ورقة محترمة وقوية وحظها فى النجاح أقرب من حظوظ غيرها من أوراق لعبة الشرق الأوسط.

كانت الولايات المتحدة خارجة من الحرب العالمية ضد الفاشية فى مكانة الديمقراطية الكبرى، وكانت الأفلام الأمريكية تعطى صورة مغرية عن مجتمع جديد، ولم تكن هناك بعد وكالة مخابرات مركزية، ولا كان هناك ضغط بالمعونات أو بالحصار الاقتصادى أو بغارات الحرب النفسية. لم تكن صورة الأمريكى القبيح قد رسمت بعد، ولا كان هناك "خليج خنازير" فى كوبا، أو مذبحة "ماي لاي" فى فيتنام .

وكانت القوة الأعظم الثانية- شريكة انتصار الحرب ضد الفاشية- وهى الاتحاد السوفيتى- ما زالت بعد تحت حكم ستالين.

وكانت بريطانيا هي عدو العرب فى الشرق... وفرنسا عدوهم فى المغرب.

وهكذا كان الخيارالأمريكى يفرض نفسه، ولا على جمال عبدالناصروحده، وانما على معظم قيادات حركة الثورة الوطنية.

واستعمل جمال عبدالناصرالورقة الأمريكية في الضغط على بريطانيا من أجل الجلاء، وحاول أن يحصل منها، بعد ثلاثة شهور من الثورة، على سلاح للجيش المصرى، وتلقى وعداً بذلك، ثم حدث تراجع عن الوعد وقيل له فى تبرير ذلك بالحرف :
"لقد كانت قائمة طلباتكم من السلاح على مكتب الرئيس الأمريكى الجديد- دوايت أيزنهاور- وكان على وشك أن يبت فيها بالموافقة، ولكن ونستون تشرشل - رئيس وزراء بريطانيا- اتصل به تليفونيا وقال. وناشده تشرشل أن يؤجل، لأن جمال عبدالناصر يهدد بحرب شعبية في منطقة القناة لإجبار الجيش

البريطانى على الانسحاب. ثم أضاف تشرشل "إنك لن ترضى أن تعطي للمصريين سلاحا يقتلون به جنود الجيش البريطاني الذين كانوا تحت قيادتك فى الحرب العالمية الثانية ". وتردد أيزنهاور ".

حتى ذلك الوقت- فبراير ١٩٥٣- كان جمال عبدالناصر يحسن الظن بالأمريكيين ويجد عذرهم فى الاستجابة لحلفائهم، خصوصاً على المستوى العاطفي ، عذراً مقبولاً . وصدّق ما قالوه له، واستجاب لنبرة الودّ المشوبة بالأسف فى اعتذارهم له.

ومن ناحيتهم ، فلست أعتقد أن الأمريكيين- في ذلك الوقت- أحسنوا تقييم وتقدير جمال عبدالناصر، وثورته في مصر، وصداها فى العالم العربى .

تصوره انقلابيا من نوع ما عرفوا فى أمريكا اللاتينية أو غيرها.. ضابط شاب " يقفز على السلطة بالدبابة والمدفع " وفى اليوم الأول يعلن على شعبه آمالاً فى التغيير بلا حدّ ، ولكن اليوم الثاني يجىء، فإذا بطل الأحلام لا يغير، وإنما يتغير. يلبس رداء السلطة ثم يجمّد الأمرالواقع ويثبته، وتذهب الأحلام إلى صحارى الضياع... سراباً رأته العيون لحظة، واتجهت إليه الأقدام فى شوق، فلم تجده حيث تصوّرته، ولم تعثر له على أثر!

ونستطيع القول بأن جمال عبدالناصر لم يقبل على الخيار الأمريكى متصوّرا أن الطريق مفتوح والريح رخاء، فلقد قدّر منذ البداية أن هناك أسباباً حقيقية لمشاكل مع الولايات المتحدة ترجع فى معظمها إلى ما رآه وقتها، ووصفه بتعبير "المأزق الأمريكي ".

والمأزق الأمريكى- كما تصوّره وشخصه وقتها.

أن الولايات المتحدة تجد مصالحها كلها مع العرب.

ولكن الولايات المتحدة ترتبط بإسرائيل بأكثر من سبب : منها الاعتبارات العاطفية، ومنها التأثير الصهيونى فى الحياة الأمريكية، ومنها ما يعتقده راسمو السياسة فى واشنطن من أن صمام الأمن النهائي فى السيطرة على المنطقة هو إسرائيل.

كان يرى ذلك مأزقاً.

وتصوّر أنه إذا استطاع أن يساعد على إيجاد حل لهذا المأزق، أو حتى صيغة تعامل مقبول- إذن فإن الولايات المتحدة سوف تغلب مصالحها على أية اعتبارات أخرى ، خصوصاً إذا نمت ثقة متبادلة بين الطرفين... بالتعامل الحرّ والحوار المفتوح وحسن النية المسبق.

وفوجئ جمال عبدالناصر بالتجربة، ووقائع التجربة مع الولايات المتحدة، وفى النهاية كانت له عبارة ترسم خيبة أمله فيها كلها. وكان يقولها فى ألم :
- على كل بقعة من جسمى كى بالنار، مما فعلوه بنا، أوحاولوه معنا!

ومع ذلك لا نسبق الوقائع.

□□□

بدأت الواقعة- أو الموقعة- الأولى بين جمال عبدالناصر وبين الولايات المتحدة فى قضية الأحلاف، لوّحوا له بأنهم سوف يساعدون فى إقناع الإنجليز بالجلاء، إذا هو انضمّ فى حلف دفاعى مع الغرب فى الشرق الأوسط.

وحاول أن يشرح وجهة نظره "لجون فوستر دالاس " وزير خارجية الولايات المتحدة عندما جاء إلى مصرفى ربيع سنة ١٩٥٣. قال له :

- " لا أتصور أن فى مقدورنا أن نقبل حلفاً دفاعياً تتحول به قوة الاحتلال من عدوّ إلى حليف، وبدلا من العلم البريطانى على قواعد القناة، يرفع علم الحلف .

نحن نريد الاستقلال أولا لكي تكون لنا إرادة حرّة نقرر بها إذا كانت الأحلاف فى صالحنا، أوهي فى غيرصالحنا.

وربما قلت لك من الآن إننا لانراها فى صالحنا، فلست افهم كيف ننضم إلى حلف ضد الاتحاد السوفيتي وهو بعيد عنا لم يبادرنا بعداء، ثم ننسى أن عداءنا الحقيقي هو مع هؤلاء الذين احتلوا أرضنا من أكثرمن سبعين عاماً.

ثم إننى لا أعتبر أن الشيوعية خطر علينا، واذا كانت خطراً فإن مقاومتها لا تكون بالأحلاف العسكرية، لأن السوفييت لن يهاجموا الشرق الأوسط بالجيش الأحمر، و إنما سوف يحاولون- إذا حاولوا- النفاذ من جهات داخلية ساءت أوضاعها بسبب التخلف والاستغلال والتبعية، ومن هنا فإن دفاعنا الحقيقى ضد الشيوعية يكون بالوطنية بمعناها الحقيقي بكونها خلاصاً من التبعية، وعملاً ضد التخلف، وعدلاً يجد فيه المواطن حياته وكرامته.

ومهما يكن فإنى أسلّم بأنه قد تكون هناك أخطار علينا، وأول هذه الأخطار إسرائيل، ووسيلتنا فى مقاومة هذه الأخطار هى ميثاق الدفاع العربى المشترك ، أما حلف للدفاع عن الشرق الأوسط ، فإنى أخشى أننى فيه سوف أجد نفسى حليفاً لإسرائيل التى تعتبرها شعوبنا كلها عدوها الرئيسى فى هذه المرحلة! " .

ولم يفهم جون فوستر دالاس .

وصدرت الإشارة بترك القاهرة جانباً ، والاتجاه إلى بغداد لتكون نواة حلف الدفاع عن الشرق الأوسط، ثم بدأ الضغط على غير بغداد من عواصم الهلال الخصيب.

واضطر جمال عبدالناصرإلى أن يقاوم .. وقاوم حلف بغداد دون أن يسدّ طرقاً أو ينسف جسوراً تقطع المواصلات مع الولايات المتحدة.

□□□

وبدأت الموقعة الثانية من قلب تلك الموقعة الأولى ، فقد تصوّر "دالاس " أنه إذا استطاع أن يرتب لصلح بين مصر واسرائيل، فإن ذلك سوف يزيل أكبر عقبات اشتراك مصرفى حلف بغداد.

وطارت بعثة فى السرّ إلى القاهرة، يرأسها "روبرت أندرسون " الذي كان وزيراً للخزانة مع أيزنهاور، والتقى مع جمال عبدالناصر، وعرض عليه رغبة الولايات المتحدة فى السعى لصلح بين مصر واسرائيل، ولم يجادله جمال عبدالناصر، وانما وضع أمامه شروطه، وكانت :

● حق شعب فلسطين فى تقريرمصيره على أرضه.
● ثم إن تطمئن مصرإلى أن الاتصال البرّى بينها وبين بقية العالم العربي فى المشرق مفتوح، ولا يكون ذلك إلا بتراجع إسرائيل عن النقب.

وسافر "أندرسون " إلى إسرائيل ليقابل "بن جوريون " وعاد يقول لعبد الناصر.

- " إن بن جوريون ذعر عندما سمع اقتراحاته، فمعناها أن لا تكون هناك إسرائيل "

واستطرد "أندرسون " يقول إن " بن جوريون " عرض اقتراحاً وجيهاً ، وهو أن يلتقي مع جمال عبدالناصر وجهاً لوجه، وأن يجئ إليه هو فى القاهرة- أو أى مكان غيرها يحدّده- سرّا أو علناً، حسبما يختار.

ورفض جمال عبدالناصر قائلاً لأندرسون:

- لا أستطيع مقابلته لمائة سبب، على الأقل.

أولها: انه إذا جاء لمقابلتى فى القاهرة فإننى لا أستطيع أن أضمن سلامته..

واذا ذهبت للقائه خارج مصر، فما أظننى أستطيع العودة إليها .

ولم يفهم " أندرسون "... ولا فهم " دالاس "... ولا فهم " أيزنهاور".

وبدأت الشكوك من الناحيتين.

□□□

وجاءت الموقعة الثالثة حين ألحّ جمال عبدالناصرفى طلب السلاح من الولايات المتحدة، فلما أحس أنه لن يحصل على ما طلب، توجه إلى الاتحاد السوفيتي ، ولم يعقد صفقة سلاح فقط ، وانما كسر احتكار السلاح فى المنطقة إلى الأبد.

وجن جنون "دالاس " وبعث إلى جمال عبدالناصر بإنذار شفوي :

"إنه سوف يقطع المعونة الاقتصادية عن مصر" (لم تكن هناك بعد معونة، وانما كان هناك وعد بها).

ثم "إنه سوف يقطع كل تعامل أمريكى مع مصر".

ثم "إنه على استعداد لقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر".

وأخيراً، " فإنه على استعداد لأن يصل إلى حدّ فرض حصار بالأسطول السادس على الشواطيء المصرية، يمنع وصول السلاح السوفيتي إليها ".

ورفض جمال عبد الناصر الإنذار، وقرّر دالاس أن يرسل مساعده فى وزارة الخارجية "جورج آلين " بإنذار مكتوب. وبعث جمال عبد الناصر إلى السفارة الأمريكية يقول إنه سوف يقابل "جورج آلين "، ولكنه إذا اشتم فى كلامه رائحة تهديد أو إنذار، فسوف يطرده على الفور من مكتبه.

وأدرك "دالاس " أنه أمام خصم مستعدّ للمقاومة وقادر عليها، فترك التهديد إلى الإغراء، وكان قوله :

- "ليكن.. إن الاتحاد السوفيتى يصدّر لكم أدوات الموت.. وأمّا نحن فسوف نصدّرلكم أدوات الحياة، وهكذا فقد قرّرنا مساعدتكم في مشروع بناء السدّ العالى الذي تتحدثون عنه وتحلمون ببنائه".

ثم أبدى "دالاس " بعد فترة تخوّفه من استمرار تدفق السلاح على مصر بحجة أن ذلك سوف يستنفد مواردها ولا يستبقى منها شيئاً للسدّ العالي ، وهكذا طلب وقف مشتريات السلاح من الاتحاد السوفيتي ، ثم طلب وقف المقاومة ضد حلف بغداد .

ورفض جمال عبدالناصر.

وكان قرار دالاس بسحب عرض المساهمة فى تمويل السدّ العالي .

ورذ عبدالناصر بتأميم قناة السويس.. وجاء العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي ، ووقف العالم كله على حافة الهاوية.

واضطرّ دالاس بعد الإنذار السوفيتي إلى التعاون لفك الأزمة الخطرة.

ولكنه لم يغفر لجمال عبدالناصر ما فعل، وكانت تلك هى الفترة التى بحث فيها أمر جمال عبدالناصر فى اجتماع للمخابرات المركزية، وقال جون فوستر دالاس لشقيقه آلان دالاس، وهو مدير المخابرات المركزية وقتها.

- " ألا تستطيع المخابرات تصفية مشكلة عبدالناصر ".

وهزآلان دالاس رأسه، وبدأت وكالته ترسل فريق الاغتيال واحدة بعد واحدة لاصطياد جمال عبدالناصر.

□□□

ثم الموقعة الرابعة:

... دالاس يحاول تنفيذ أهداف العدوان الثلاثى بوسائل أخرى . الحصار الاقتصادي ثم الحصار السياسي عن طريق عزل مصر بمشروع أيزنهاور، ثم الضغط على سوريا أكبر حلفائه بحكم دورها التاريخي فى الحركة القومية.

وأفلت عبدالناصر من الحصار الاقتصادي، ولم ينجح الحصار السياسي فى عزل مصر وانما سقط مشروع أيزنهاور، وبدأ التفكير فى غزو سوريا، واذا قوة مصرية تذهب إلى سوريا، ثم إذا الوحدة تعلن، ثم إذا حلف بغداد ينهار فى بغداد، وجرى الأسطول الأمريكى فاقتحم الشواطىء اللبنانية، ثم اكتشف

دالاس أن الولايات المتحدة لن تستطيع إرغام العالم العربي على الركوع بمجرد ظهور بحّارة الأسطول الأمريكي السادس على رمال الشاطىء فى بيروت.

وأصبح الموقف شديد التوتر، واضطر دالاس إلى التراجع، ثم عاد أيزنهاور يحاول استرضاء عبدالناصر بشحنات من القمح الأمريكى لمصر. ولكن ما في القلب بقى في القلب!

□□□

ومع بداية عصر جون كنيدي- ١٩٦١- ورئاسته للولايات المتحدة الأمريكية- جرت الموقعة الخامسة.

بدأ كنيدى بسياسة تدعو إلى ارتياد "الآفاق الجديدة"، وتصوّر أن الشرق الأوسط أفق من هذه الآفاق، يستطيع أن يترك عليه بصمات أصابعه، وبدأ مراسلات- استمرّت طويلاً- مع جمال عبدالناصر.

وكانت أولى الرسائل عن العلاقات بين مصر واسرائيل، وأفاض كنيدي فى مزايا السلام إذا تحقق على الأرض المقدسة.

وردّ جمال عبدالناصر بخطابه المشهور الذى قال فيه عن وعد بلفور "إن من لا يملك أعطى وعدًا لمن لا يستحق " وضاعت بذلك حقوق شعب فلسطين.

واتصلت الرسائل ذاهبة عائدة من واشنطن إلى القاهرة وبالعكس، واكتشف جون كنيدي أن الأمر أعقد مما تصوّر، وصدرت الإشارة إلى المخابرات الأمريكية، فعادت تحاول ضد مصر، وهدفها فى ذلك الوقت كسر الوحدة بينها وبين سوريا .

وتحقق لها ما أرادت، وتصوّرت أن ضرب الوحدة فى سوريا سوف يعقبه انكسار النظام وسقوطه فى القاهرة.. ولكن جمال عبدالناصر كان يقاوم بشدة وضراوة رغم صدمة الإنفصال.

□□□

فى عصر كنيدي أيضا جاءت الموقعة السادسة.

مصر تبنى صناعة طائرات وصناعة صواريخ، واسرائيل تشكو من نشاط علماء ألمان جاءت بهم مصرلمساعدتها فى مشروعها الطموح .

وكتب كنيدي إلى عبدالناصر مستفسرا، وردّ جمال عبدالناصر بقوله:

- أريد أن أكون واضحاً وعملياً .

إننا نحاول بناء صناعة طائرات، وبناء صناعة صواريخ، ولكن أمامنا وقتا طويلاً لتصبح هذه الصناعات عماداً لتسليحنا.

إن هدفى منها بالدرجة الأولى فى هذه المرحلة، هو الحصول على تكنولوجيا عصر جديد.

(من الغريب أن البعض هاجموا جمال عبدالناصر فى صناعة الطائرات والصواريخ، واعتبروا ما صرف عليها فى ذلك الوقت تبديدا لأموال لا داعى لتبديدها.

ومرّت الأيام، وجاء الوقت الذى أصبحت فيه هذه المصانع هى نصيب مصر العينى فى إقامة مؤسسة صناعات الأسلحة العربية، وقوّمت حين قوّمت في أصول هذه المؤسسة بأكثر مما دفع فيها عند إنشائها).

ووجدت الولايات المتحدة أن ما قاله عبدالناصر ليس مدعاة للطمأنينة وانما هو مدعاة لمزيد من القلق... فأخطر من بناء الطائرات والصواريخ، أن تكون لدى مصر معرفة واستيعاب لتكنولوجيا عصر جديد.

وكانت إسرائيل لا تكف عن الشكوى لأن جمال عبدالناصر أغلق أمامها سوق السلاح فى بريطانيا التى اكتوت أصابعها بالنار فى السويس، ثم أغلق أمامها سوق السلاح فى فرنسا حين أنشأ خط علاقات مباشر بينه وبين الجنرال ديجول.

وقرّر جون كنيدى أن تدخل الولايات المتحدة لأول مرة فى دور بائع السلاح لإسرائيل، وهكذا عقد معها صفقة لعدد من بطاريات صواريخ " هوك ".

وكتب إلى جمال عبدالناصر أسوأ رسالة فى سلسلة مراسلاتهما.

قال جون كنيدى في رسالته ما مؤداه أن الولايات المتحدة قرّرت تقديم شحنات أسلحة محدودة إلى إسرائيل، " وأنه إذا انتهزت مصر هذه الفرصة للقيام بحملة دعائية واسعة ضد الولايات المتحدة فى العالم العربي ، فإن واشنطن سوف تردّ على ذلك بإرسال المزيد من الأسلحة إلى إسرائيل! ".

ولم يسكت جمال عبدالناصر، بالطبع، وبدأت حدة التوتر فى العلاقات تزداد.

□□□

والموقعة السابعة فى عصر جون كنيدى هى الأخرى .

كانت الولايات المتحدة مشغولة بأزمة الصواريخ فى كوبا، وقد وصلت هذه الأزمة إلى حدود خطرة تهدد بمواجهة نووية بين القوتين العظميين .

وفى تلك الساعات اتخذ القرار المصرى بالتدخل لنجدة ثورة اليمن.

وحين رفع كنيدى عينيه عن أزمة الصواريخ، فوجىء بالوجود المصري العسكري فى جنوب شبه الجزيرة العربية.

وبذل جون كنيدى في البداية محاولات لكي تسحب مصر قواتها من اليمن .

ثم تغيرت الإستراتيجية.

بدلاً من حث مصر أو تطمينها لسحب قواتها من اليمن، بدأت إستراتيجية أخرى تفرض على مصر أن ترسل جزءاً كبيرا من قواتها إلى اليمن.

وهنا يظهر الدور الكبير الذى قامت به وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى تجنيد قوة مرتزقة من الأجانب يحاربون ضد مصر فى اليمن.

فى وقت من الأوقات بلغ عددهم اثنا عشرألفاً .

واستطاعت المخابرات المركزية الأمريكية أن تحصل على مساعدة إسرائيل لهم، فقد تكفل الطيران الإسرائيلي بعمليات إسقاط المؤن والذخائر لهم فى مواقع محددة بالقرب من مكامنهم في الكهوف وعلى الجبال وفى الوديان.

وأدّى ذلك بالطبع إلى تعقيدات كثيرة، فلم تكن هذه المشكلة مشكلة دعاية أو سياسة.. أو اختلاف وجهات نظر، وانما اصطبغ الخلاف بلون الدم .

□□□

وسقط كنيدى فى مدينة "دالاس "- "تكساس"- برصاصات شاب مجهول هو " لى أوزوالد " وخلفه "ليندون جونسون " ومعه الموقعة الثامنة.

وبعث "جونسون " إلى جمال عبدالناصر يطلب للولايات المتحدة حق الهيمنة على موازين السلاح فى المنطقة، بدعوى ضرورة تحديده، حتى لا يكون من تكديسه حافز لاستعماله حتى ضد نوايا الأطراف ورغباتهم .

وهكذا تقدّم "جونسون " يطلب حق التفتيش على المفاعل النووى المصري ، وحق التفتيش على مصانع الطائرات والصواريخ المصرية..

وكان الطلب غريباً..

وكان الجو الذى صاحبه أشد غرابة.

وحين رفض جمال عبدالناصر كان الشدّ والجذب فى العلاقات المصرية الأمريكية قد وصل إلى قرب درجة القطيعة.

□□□

ثم كان "جونسون " أيضاً بطل الموقعة التاسعة، فقد أحس أن جمال عبدالناصر يتحدّى النفوذ الأمريكى فى المنطقة، ويرفض كل الطلبات الأمريكية ، ويعبىء الجماهير العربية ضد السياسات الأمريكية. ولم يكن جمال عبدالناصر يفعل ذلك نكاية فى أمريكا، ولكنه كان يريد تثبيت وتدعيم قاعدة المقاومة العربية، بأن تكون الشعوب العربية كلها واعية بما يجري ، موجودة عن طريق هذا الوعى كطرف فى الصراع.

وقرر جونسون وقف مبيعات القمح لمصر، وفقاً لقانون ب. ل . ٤٨٠ .

وجاء هذا القرار فى الوقت الذى يستطيع ضرره فيه أن يكون محسوساً .

جاء فى وقت بدأت تظهرفيه الاثارالتضخمية لتنفيذ خطة السنوات الخمس الأولى للتنمية الشاملة.

وجاء فى وقت تصاعدت فيه نفقات العمليات العسكرية فى اليمن.

وضرب جونسون ضربته، وكان ذلك فى نهاية سنة ١٩٦٦ .

وفى منتصف سنة ١٩٦٧، يونيو بالتحديد، جاءت الموقعة العاشرة، وكانت أكثر المحاولات شراسة وأشدها عنفاً .

لسوف تمر سنوات طويلة قبل أن يظهر الدور الذى قامت به الولايات المتحدة في معركة يونيو ١٩٦٧، ولكن الثابت من الآن أن مساعدة الولايات المتحدة لإسرائيل سارت فى طريقين متوازيين فى تلك الظروف :

... طريق رسمي علني - سياسي بالدرجة الأولى- وقد تمثل فى الوعد الأمريكي الذي اتخذ فى مجلس الأمن القومي الأمريكي بأن تضمن الولايات المتحدة لإسرائيل أمرين :

- الأول : تفوق فى السلاح على كل الجيوش العربية.
- والثاني : ضمان أنه فى حالة قيام عمليات فإن الولايات المتحدة سوف تتدخل عسكرياً إذا كان هناك ما يوحي بوجود انتصار مصري .

فإذا كان هناك انتصار إسرائيلي فإن الولايات المتحدة تضمن لإسرائيل أن لا يصدر قرار من الأمم المتحدة يفرض عليها الانسحاب من أراضٍ تكون قد احتلتها، ثم إن الولايات المتحدة تضمن أيضاً أن لا يكون هناك ضغط يمارس دولياً على إسرائيل ما لم يقبل العرب بعقد الصلح معها أوإقامة السلام .

... وأما الطريق الثاني الذى مشت عليه المساعدة الأمريكية لإسرائيل، فقد كان طريقاً سرّياً- وعسكرياً بالدرجة الأولى- قامت به وتولت مسئوليته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، التى تكفلت بتقديم المعلومات عن أوضاع القوات المصرية، والتى اشترك أسطول طائراتها فى نقل الأسلحة والذخائر، والتى توّلت تجنيد متطوعين للحرب مع إسرائيل، خصوصاً من جنوب أفريقيا وروديسيا.

وبعد هذه الموقعة، كان الغضب جامحاً فى العالم العربي ، وقطع جمال عبدالناصر علاقات مصر مع الولايات المتحدة، وتبعته فى ذلك دول عربية عديدة، وبدأ نزوح الرعايا الأمريكيين من الشرق الأوسط ، بينما جونسون فى ثورة عارمة على مشهد هذا " الخروج " الذى اعتبره مهيناً لأمريكا، وكان ذلك أبسط نوع من أنواع الإحتجاج على الاشتراك فى المؤامرة الكبرى.

برغم ذلك كله، لم يدع جمال عبدالناصر للغضب الشخصي سبيلاً إلى قراراته.

كان يدرك أن بين الأمة العربية وبين الولايات المتحدة تناقضاً أساسياً ، ولكن الحذر فى إدارة هذا التناقض واجب.

وقدّر جمال عبدالناصر أنه لا أمل فى فتح باب بينما "جونسون " فى البيت الأبيض، وهكذا لم تكد مدة رئاسته تنتهى ويفوز " ريتشارد نيكسون " بالرئاسة بعده، حتى انتهز جمال عبدالناصر الفرصة فبعث إلى "نيكسون " برسالة تهنئة.

ورد "نيكسون " بإرسال بعثة تقصي حقائق فى أزمة الشرق الأوسط ، يرأسها "وليم سكرانتون " الذى عيّن أخيرا مندوباً دائماً للولايات المتحدة الأمريكية فى الأمم المتحدة، وتعثرت بعثة "سكرانتون " وسقطت على الأرض لمجرد أنه أدلى بتصريح بعد عودته من مهمته فى الشرق الأوسط إلى واشنطن ، قال فيه " إن الولايات المتحدة لا بدّ لها أن تتبع سياسة متوازنة فى الصراع العربي الإسرائيلي ".

ولم ييأس جمال عبدالناصر، وانما انتهز فرصة أخرى ... هى فرصة وفاة "الجنرال أيزنهاور"، فبعث بالدكتور محمود فوزي على رأس وفد للعزاء فى "وا شنطن " وكلفه باستكشاف آفاق التفكير الأمريكي فى الأزمة .

وحتى بعد أن قامت طائرات الفانتوم بغاراتها على عمق مصر، وضربت مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر البقر، قبل جمال عبدالناصر باستقبال " جوزيف سيسكو" مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط وقضى ساعتين يتحدث معه.

ثم وقف فى عيد أول مايو سنة ١٩٧٠ يوجه نداء إلى الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، يخيّره بين أحد أمرين أن يطلب إلى إسرائيل الانسحاب فوراً من الأراضي المحتلة، أو أن يوقف عنها شحنات السلاح، لأن استمرار احتلالها للأراضي العربية مع استمرار تزويدها بالسلاح الأمريكي معناه أن الولايات المتحدة شريكة فى تثبيت هذا الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية.

وجاء الردّ على شكل " مبادرة روجرز " ، وقبلها جمال عبدالناصر ليعطي للرئيس الأمريكي فرصة، ولكي يعطي نفسه فى ذات الوقت فرصة لإستكمال بناء حائط الصواريخ على جبهة قناة السويس.

فى هذا كله كان جمال عبدالناصر يدرك مشكلتين :

- مشكلة التناقض بين العرب والولايات المتحدة، وهو تناقض له أسبابه العديدة والمتنوعة.
- وفى نفس الوقت، مشكلة اختيار الأسلوب الملائم لإدارة هذا التناقض فى ظل أوضاع القوة الدولية الراهنة.

□□□

ومع ذلك جاءت الموقعة الحادية عشرة، والأخيرة حتى الآن- بين العرب وبين الولايات المتحدة، ولعلها كانت بعد سنة ١٩٦٧ أعنف المواقع.

فى الوقت الذي استطاعت فيه الجيوش العربية على الجبهات العربية، وفي مقدمتها الجيشان المصرى والسوري ، توجيه ضربة مفاجئة لإسرائيل فى اكتوبر ١٩٧٣، سارعت الولايات المتحدة إلى نجدة إسرائيل، حتى وجد الرئيس أنور السادات نفسه ، وعلى حد قوله ، "يحارب الولايات المتحدة".

كانت الولايات المتحدة هي التي أعطت لإسرائيل، وسط المعركة، سلاحاً عبرت به قناة السويس من الشرق إلى الغرب، ردّا على عبورالجيش المصرى من الغرب إلى الشرق!

ثم أتبعت الولايات المتحدة هذا العمل المكشوف بأعمال أخرى مستترة، استهدفت جميعاً إجهاض الموقف السياسي العربي ، وتفريغه من كل قواه الضاغطة، إلى جانب تمزيق تماسك الجبهات العربية المحيطة بإسرائيل **[تكفي نظرة واحدة الآن على مجمل العلاقات الامريكية الإسرائيلية لمعرفة المدى الذي وصلت إليه هذه العلاقات- فقد تحقق تطابق كامل بين السياستين - في عصر قبل فيه كل العرب تقريبا بفكرة السلام مع إسرائيل- وجمال عبد الناصر في مثواه الأخير منذ سبعة عشر عاماً] .**

ألم يحدث هذا؟

حدث ...

وكان جمال عبدالناصر فى مثواه الأخير منذ أكثر من ثلاث سنوات.

ولم يكن هناك يستفز الولايات المتحدة، أو يبادرها بعداء، أو يطالعها بوجه عابس أو مبتسم**!!**

الحديث الحادي عشر

عبد الناصر وفتح الأبواب للاتحاد السوفييتي

تظل هناك نقطة فى ادعاءاتهم على جمال عبدالناصر:

- " لقد فتح أبواب الشرق الأوسط أمام الاتحاد السوفيتي ، وأدخله إلى المنطقة قوة تؤثر في مقدراتها؟".

ونناقش هذه النقطة بموضوعية، ولعلّي واحد من الذين يستطيعون مناقشتها دون أى حساسية، فلقد تصدّيت كثيراً لنقد السياسة السوفيتية فى المنطقة، وتعرّضت مراراً لحملات مضادة من جانب أجهزة الإعلام السوفييتية، بل وصل الأمرإلى ما هو أكبر من ذلك :

وصل الأمرإلى حدّ أن "ليونيد بريجنيف " طالب بإبعادى عن الصحافة المصرية وتأثيرها السياسي على الرأى العام المصري . وقد نقل طلب "بريجنيف " إلى القاهرة مع الوفد المصري الذي حضر المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، والتقى بسكرتيره العام "بريجنيف " قبل عودة هذا الوفد من موسكو إلى القاهرة. بل إن الرئيس "نيكولاي بادجورني" أعاد هذا الطلب على الرئيس انور السادات فى آخر زيارة له للقاهرة، وكان الرئيس السادات بنفسه هو الذى أخبرني بما طلبه منه "بادجورني"، بل وفوضني الرئيس السادات أن اناقش هذا الموضوع مع " بوريس باناماريوف " عضو المكتب السياسي السوفيتي ، وكان يزور القاهرة في صيف سنة ١٩٧١، فى أعقاب زيارة " بادجورني " لها!

أعود إلى النقطة الأصلية فى هذا الحديث؟

- هل صحيح أن جمال عبدالناصر فتح أبواب الشرق الأوسط أمام الاتحاد السوفيتي ، وأدخله إلى المنطقة قوة تؤثر فى مقدراتها؟

ونحاول الإجابة عن هذا السؤال، وأسئلة أخرى تتفرع منه.

والإجابة على السؤال نفسه لا تحتاج إلى جهد كبير، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١- لقد كان الغرب هو الذى أدخل الاتحاد السوفيتي إلى المنطقة أول مرة فى هذا القرن، وليس جمال عبدالناصر.

حدث ذلك حين اتفقت بريطانيا مع الاتحاد السوفيتى على اقتسام احتلال إيران سنة ١٩٤١- اعترافاً من بريطانيا بأن الاتحاد السوفيتي ، حليف المعركة الكبرى ضد هتلر، له مصلحة أمن لا يمكن إغفالها فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى اتجاه الخليج العربى والمحيط الهندى بشكل خاص.

ثم حدث ذلك حين جلس روزفلت مع ستالين فى "مؤتمر يالتا" سنة ١٩٤٥ يقتسمان العالم ومناطق النفوذ فيه، كأن الكرة الأرضية أمامهما كعكة تحوّلها سكين الكبار إلى شرائح لكل منهما فيها نصيب يأخذه ويقر له الآخر به.

٢- فى مطلق الأحوال، فإن الاتحاد السوفيتي بعد الحرب العالمية الكبرى الثانية لم يكن فى حاجة إلى تشرشل أوإلى روزفلت ليعطيه دوراً عالميا. فقد كان دوره موجوداً على نحو أوآخر فى كل القارات وعلى كل المحيطات. إن الاتحاد السوفيتي خرج من الحرب العالمية الثانية وهو واحدة من القوتين الأعظم، وكانت التطورات سنة بعد سنة منذ تلك الحرب تؤكد هذه الحقيقة وتجعل من الاثنين، والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والتعاون بينهما والتنافس بينهما، أساساً للنظام الدولى المعاصر.

واذن، فإن الاتحاد السوفيتي ، الذى لم يكن فى حاجة إلى "تشرشل " و"روزفلت "، لم يكن أيضاً فى حاجة إلى جمال عبدالناصر يفتح له أبواب الشرق الأوسط ويدخله إلى المنطقة.

بل لعل الاتحاد السوفيتي كان أقرب إلى التواجد فى المنطقة من الولايات المتحدة.

إن الولايات المتحدة كانت موجودة فيها بحكم المصالح وراء البحار البعيدة.

وأما الاتحاد السوفيتى فقد كان موجوداً فيها بحكم الجوار وراء الحدود القريبة والمباشرة فى بعض الأحيان.

٣- وربما كان دور جمال عبدالناصرإزاء الاتحاد السوفيتي - والحال كذلك
- هو أنه كان القائل للاتحاد السوفيتى:

- " لاتتعاملوا معنا من خلال أوصياء علينا فليس علينا أوصياء، ولامن خلال اقتسام مناطق النفوذ فلسنا ضمن مناطق النفوذ لأحد.. إذا أردتم أن تتعاملوا معنا فنحن على استعداد كطرف مستقل ومن الباب الأمامي ".

وقد كان!

سؤال فرعى يتداعى بعد الإجابة على السؤال الرئيسى :

- ماذا استفدنا؟

و الردّ :

- ما أكثر ما استفدناه، ويمكن تلخيصه كله فى اننا أصبحنا أطرافاً فى حركة الصراع العالمى، ولم نعد، كما كنا من قبل، كمية مهملة على حافة هذا الصراع وحركته العامة الشاملة:

١- استطعنا أن نخرج من التبعية الكاملة لأحد المعسكرين الدوليين.
٢- دخلنا تفاعلات الحرب الباردة بين المعسكرين، واستفدنا من موازينها لصالح قضايانا، وانشأنا مع غيرنا تياراً مستقلاً - هو تيارعدم الانحياز- أثرنا به على قضية السلام والحرب والتنمية فى عالم النصف الثانى من القرن العشرين.
٣- عندما تحوّلت تفاعلات الحرب الباردة إلى تفاعلات وفاق بين الكتلتين استفدنا من أحكام الوفاق- وكان فى استطاعتنا أن نستفيد أكثر- لكي تكون هناك تسوية عادلة لمشاكنا، إذا كان هذا العالم حقيقة يريد السلام ويريد الوفاق مدخلاً إليه.

هذا فى مجال الحركة العالمية بشكل عام .

□□□

فإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص، وركزنا أنظارنا على الشرق الأوسط ، لوجدنا أن ما حدث فى مجال الحركة العالمية بشكل عام انعكس على المنطقة عملياً كمايلى :

١- إن جمال عبدالناصر استعان بدور السوفييت فى مواجهة الولايات المتحدة على مهمة تصفية الاستعمارالتقليدي في المنطقة، استعان به سياسياً واستعان به عسكرياً ، ولو بغير السلاح.

استعان به سياسيا فى مواجهته العظيمة مع الاستعمار فى حرب السويس منذ التأميم فى يوليو ١٩٥٦ إلى بداية الغزو البريطاني الفرنسي الإسرائيلي فى آخر اكتوبرمن نفس السنة.

وحين بدأ الغزو، وقاوم جمال عبدالناصر وحده حتى تحركت الموازين الدولية، كان الإنذار السوفيتي هو الذى حرّك الضغط الأمريكي على حلفاء أمريكا فى الغرب، فاضطروا إلى التراجع دون أن يستعمل الاتحاد السوفيتي صواريخه.

ومثل هذا حدث تقريبا في أواخرأكتوبر من سنة ١٩٧٣.

٢- إن جمال عبدالناصر استعان بالاتحاد السوفيتي على كسر احتكار السلاح المفروض على المنطقة، وكان السلاح السوفيتي هو السلاح الوحيد الذى وجده العرب فى أيديهم لمقاومة التوسع الإسرائيلي، ولمحاولة ردّ هذا التوسع بالقوة إلى مرحلة التقلص والانكماش.

كان السلاح السوفيتي هو السلاح الوحيد الذى وجدناه فى أيدينا سنة ١٩٥٦، وهو السلاح الوحيد الذى وجدناه فى أيدينا سنة ١٩٦٧، والسلاح الوحيد الذى وجدناه فى أيدينا سنة ١٩٦٩- حرب الاستنزاف- والسلاح الوحيد الذى وجدناه فى أيدينا سنة ١٩٧٣.

واذا تساءل متسائل. ماذا فعلنا بهذا السلاح سنة ١٩٦٧؟

فإن الردّ عليه هو أن الذنب لم يكن ذنب السلاح، وانما كان ذنب قصورنا فى توجيهه والدليل على ذلك أن هذا السلاح الذى كان فى أيدينا هو نفسه السلاح الذى كان فى يد الثورة الفيتنامية، وصنعت به المعجزات أمام القوة الأمريكية بجلالة قدرها!

٣- إن السلاح السوفيتى- حتى هذه اللحظة- هو السلاح الوحيد فى جيوش مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن الديمقراطية والسودان والصومال، ثم هو كل السلاح الذى تمسك به المقاومة الفلسطينية، وأخيراً فهو اليوم جزء هام من سلاح ليبيا والكويت، وغيرهما من الدول العربية.

٤- بل إن محاولات الغرب لبيع السلاح إلى المنطقة- وبينها مصر الآن- تنبع أساساً من منطق "تقليل اعتماد مشتريه على الاتحاد السوفيتي "، وهكذا فإنه حتى حصولنا على سلاح من الغرب لم يكن ليحدث لولا علم الغرب أنه إذا لم يبع سلاحه للعرب فإن العرب لن يعوزهم الحصول على السلاح من غيره- من الاتحاد السوفيتى.

٣- وهكذا نستطيع القول إن دخول السلاح السوفيتي إلى المنطقة غيّر الموازين فى الصراع العربى- الإسرائيلي .

وفوق ذلك فلقد أعطى لهذه المنطقة الغنية، والفادحة الغنى، قوّة مسلحة تذود بها عن كنوزها، فليس هناك ما هو أكثر غواية للمطامع من كنز مباح لا يدافع عنه سلاح!

٦- ولم تكن المساندة السوفياتية فى مواجهة الأزمات وحدها، سواء بإمدادات السلاح أو بالمواقف السياسية، وانما تحمل الأرض العربية على ظهرها شواهد لا يمكن إنكارها من رموز التعاون العربي السوفيتى . سدّ أسوان العالي - سدّ الفرات- مجمعات الحديد والصلب- ترسانات بناء السفن- مصانع بالمئات وبالآلاف- مفاعلات ذرية- محطات كهرباء، إلى آخره.

٧- ولم تكن دعائم القوّة المسلحة، ولا كانت دعائم القوة الاقتصادية، التى حصلنا عليها من الاتحاد السوفيتي ، بثمن باهظ يثقل علينا عبئه .

كان السلاح ، وما يزال، يباع لنا بسعر معقول، وكان، وما زلنا، نحصل عليه بخصم على هذا السعر نسبته ٢٥ فى المائة، وكانت الأقساط ، وما زالت، على سنوات طويلة ، بين اثنتي عشرة سنة وعشرين سنة، وكانت الفوائد لا تزيد على ٢,٥ فى المائة.

وبصفة عامة، وهذا تقدير الخبراء، فإن نسبة ثمن أى سلاح سوفييتى إلى مثيل غربي له هى بنسبة ١ للسلاح السوفيتى و ٣ للسلاح الغربى ، فإذا أضيفت فوارق الفوائد (٢,٥ فى المائة فى السلاح السوفيتي وما بين ١٥ و ١٨ في المائة للسلاح الغربي) لأصبحت هذه الفوارق فادحة.

ونفس الوضع تقريباً فى اتفاقيات السلاح ينطبق على اتفاقيات انشاء السدود وبناء المصانع وغيرها.

وسؤال فرعى آخر.

- هل قدّم الاتحاد السوفيتي هذا كله من أجل عيون جمال عبدالناصر وارضاء لخاطره؟

وا لردّ.

- إن الأمر كان أكبر من ذلك جدّا، ولو حاولنا أن ندقق لوجدنا ما يلى :

١- إن الاتحاد السوفيتي بدأ علاقاته مع جمال عبدالناصر بالشك فيه على أساس التحليل الماركسي التقليدي لدور الجيوش فى المجتمعات، والجيوش فى المجتمعات قبل ثورة عبدالناصر كانت أداة لحفظ الأمر الواقع وحمايته وليست أداة لتغييره وتطويره، وهكذا كان حكم الاتحاد السوفيتي ابتداء يقضى بأنه : ديكتاتور فاشيستي لا أكثر ولا أقل..

ثم فوجيء الاتحاد السوفيتي بظاهرة جمال عبدالناصر التاريخية : زعامة وطنية، قادرة على أن تمثل وتبرز إرادة قومية مستقلة وتقدمية، وسجلها فى معاداة الاستعمار قاطع واتجاهها إلى التنمية الشاملة واضح، ثم إن هذا كله يحدث فى منطقة حيوية بالغة الأهمية كالشرق الأوسط ، خصوصاً بموقعه القريب وراء ظهر الاتحاد السوفيتى.

٢- إن الاتحاد السوفيتي وجد جمال عبدالناصر يتعدّى الحاجز الوطنى لمصر، ويتخطى النطاق القومي لأمته العربية ثم يذهب بعيذاً وعميقاً - بعد السويس بالذات- لكى يطلق صيحة الحرية "أوهرو" فى افريقيا كلها، فإذا نكروما فى غانا، وسيكوتورى فى غينيا، وموديبو كيتا فى مالى، وجومو كينياتا فى كينيا، ونيريرى فى تانزانيا، يبرزون على الساحة الإفريقية المظلمة فى وسط هالة التحرر المضيئة التى تشع من مصر عبدالناصر.

ويعبّر أستاذ أفريقى رصين كالأستاذ "مزروى" عن الحقيقة فى عدد أخير من مجلة الشئون الخارجية قائلاً :

- " إذا كان يقال إن العرب شاركوا فى استعباد افريقيا بتجارة الرقيق فى قرون مضت، فإن العرب قد كفّروا عن الخطيئة فى هذا القرن، حين جاءوا وراء جمال عبدالناصر لتحرير افريقيا ".

ثم تصل أبعاد الطاقة التحررية العظمى التى فجّرها جمال عبدالناصر إلى أمريكا اللاتينية، ويسمع السوفييت من رجل مثل فيدل كاسترو يقول لهم- كما قال علناً .

- " لقد كان جمال عبدالناصر إلهاماً لثورتنا.. إذا كان فى استطاعته أن يتصدى لبريطانيا وفرنسا واسرائيل فى السويس .. أفلا يكون فى استطاعتنا نحن أن نتصدى لحكم الديكاتور باتيستا وأن نعلن الثورة المسلحة وننتصر؟ ".

٣- وليكن أن الاتحاد السوفيتي وجد أن التيار التحررى الذى قاده جمال عبدالناصر يتلاقى مع أهدافه.

فالاستعمار الذى يتصدى له عبد الناصر هو نفسه القوة العظمى الثانية التى يتنافس معها الاتحاد السوفيتى.

ماذا فى ذلك؟

وأليس حقاً أن السياسة الدولية هى حركة بالاتفاق والاختلاف متغيره لحماية مصالح دائمة لشعب أو لأمة أو لكتلة من الشعوب والأمم؟.

لقد تلاقت مصالحنا مع مصالح الاتحاد السوفيتى.
واستفادت الأمة العربية، واستفاد الاتحاد السوفيتى بطبيعة الحال.
وأليس هذا هو منطق التعامل الدولى ذاته؟ أو أننا نتصور أن نأخذ ولا يأخذ غيرنا؟!

□□□

سؤال يتداعى من هنا :
-... ولكن ماذا أعطى... هذه هى المسألة؟

ويندفع بعضهم- افتراء على الله وتجنيا- ليقول :

- لقد أعطى استقلال مصر بهذا التواجد العسكرى السوفيتي الذى تركه فى مصرعندما رحل فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠؟

واستأذن فى وصف هذا السؤال بالكلمة المشهورة عن الرئيس السادات وهى كلمة : عيب!

ثم أشرح الأسباب :

١- إن جمال عبدالناصر تعامل مع الاتحاد السوفيتي من موقف الندّ للندّ ، فقد كان يعرف أنه أمامهم يمثل أمة عربية بأسرها، لها إرادتها المستقلة ، ولها مصالحها القومية فى منطقة من أهم مناطق الدنيا، وأقرّالاتحاد السوفيتى بهذه الحقيقة، واقرار زعمائه بها مسجل فى كل خطاب ألقوه أمامه... بل إن عبدالناصر كان أمامهم أكبر من مجرد زعيم عربى، فقد كان رمزا عالميا للثورة الوطنية، ولعدم الانحياز، ولأمانى العالم الثالث كله وتطلعاته ونضاله.

٢- حينما أخطأ الاتحاد السوفيتى، بعد ثورة العراق فى سنة ١٩٥٨، فى فهم الحقيقة القومية، كان جمال عبدالناصر هو الذى تصدّى لمعركة مع الاتحاد السوفيتي لم يسبق لها مثيل فى العالم الثالث كله، ولا لحقها مثيل بعد ذلك.

وفى بداية سنة ١٩٥٩ كانت المعركة بين جمال عبدالناصر و"نيكيتا خروشوف " على أشدها، ووقف "خروشوف " فى المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي يهاجم عبدالناصر، ورد عبدالناصر من شرفة قصر الضيافة فى دمشق.

ولم يكن جمال عبدالناصر يريد أن يهزم الاتحاد السوفيتي أو يخرجه من الشرق الأوسط ، ولكنه كان يريد أن يفرض عليه الحقيقة القومية فرضاً .

واستطاع عبدالناصر محاصرة الاتحاد السوفيتي فى الموصل فى شمال العراق، ولم يترك له حليفاً أو صديقاً غير الحزب الشيوعى العراقى- كما كان وقتها- واضطر الاتحاد السوفيتى أن يرى الحقيقة ويسلّم بها، وهى أن الأمة كلها وراء الرجل الذى استطاع التعبير عن حقيقتها القومية. وبدأ يتراجع.

وكانت ذروة التراجع مجئ "نيكيتا خروشوف " بنفسه إلى مصر سنة ١٩٦٤ ليحضراحتفال إتمام المرحلة الأولى من بناء السدّ العالي ، وليقدم لجمال عبدالناصر فى أسوان وسام " بطل الاتحاد السوفيتى "!

٣- بعد سنة ١٩٦٧ كانت سياسة جمال عبدالناصر بالغة الدقة إزاء الاتحاد السوفيتى.

- طلب خبراء سوفييت ومزيداً من الخبراء:

... لاعتقاده بأن الجيش المصري يحتاج إلى تدريب مركز ومكثف ليتحرك بسرعة عبر مراحل إستراتيجية الحرب، وهى الصمود والردع والتحرير.

● ترك جمال عبدالناصر للاتحاد السوفيتي ، بعد صدور قرار مجلس الأمن، أن يتولى اتصالات تنفيذه مع الولايات المتحدة.

... ولم يكن بهذا يتخلى عن مسئوليته القومية، ولكنه كان يريد أن يعرف الاتحاد السوفيتى، بالخبرة العملية، أنه لا أمل فى حل دبلوماسي ، وأن الحل لن يجىء إلاعن طريق استخدام القوة.

● أعطى جمال عبدالناصر تسهيلات للأسطول السوفيتي فى ميناءى بورسعيد والإسكندرية.

... ولم يكن بذلك يعطى قواعد للاتحاد السوفيتي ، وانما أراد تشجيعه على زيادة أسطوله فى البحرالأبيض لتكون القوة النامية لهذا الأسطول في البحر الأبيض رادعا للأسطول الأمريكي الذى كان يعتبر احتياطياً إستراتيجياً لإسرائيل.

٤- فى الزيارة السرية التى قام بها جمال عبدالناصر لموسكو فى بداية سنة ١٩٧٠، وهى الزيارة التى زاد بعدها تواجد السوفييت فى مصر بحكم قبولهم لمسئوليات الدفاع عن العمق- كان جمال عبدالناصر يعرف ما يريده، وقد حصل عليه:

كان جمال عبدالناصر يريد أن يحمى قوات الجبهة ببطاريات الصواريخ المصرية، ولكن تركيزها جميعاً إلى الجبهة يترك العمق مكشوفاً أمام الغارات الإسرائيلية التى بدأت تستبيح سماوات مصر بطائرات الفانتوم. وكان اشتراك السوفييت فى الدفاع عن العمق- حتى يتم تدريب أطقم مصرية كافية على الصواريخ الجديدة من طراز "سام ٦ " حلاً وحيداً للمشكلة، وبغيره لم يكن هناك مفرمن بعثرة طاقة مصرالصاروخية بين الدفاع عن الجبهة والدفاع عن العمق، والتأخر في استيعاب صواريخ "سام ٦ " المضادة للطيران المنخفض.

وكان "بريجنيف " يعارض بشدة لأن اشتراك السوفييت فى هذه العملية يؤثر على الموازين الدولية، ويهدد ا لوفاق.

وكان ذلك مطلبا من مطالب جمال عبدالناصرالتى لم يصرح بها لمفاوضيه، فقد كان يريد أن يؤثر على الموازين الدولية، كما كان يريد تعطيل حركة الوفاق حتى تتحرك أزمة الشرق الأوسط.

وسارت الحوادث فى الطريق الذى رسمه جمال عبد الناصر.

● توقفت غارات العمق عندما أحس الإسرائيليون يوم الغارة على الفيوم- ١٨ إبريل- بوجود السوفييت.

● تحركت الولايات المتحدة وبعثت جوزيف سيسكو إلى القاهرة لاستطلاع رأى جمال عبدالناصر.

● توترت العلاقات بين القوتين العظميين.

● تقدمت الولايات المتحدة بمبادرة روجرز التى أشارت لأول مرة إلى الانسحاب من الأراضى العربية، على أساس قرار مجلس الأمن.

● استطاع جمال عبدالناصرإتمام بناء حائط الصواريخ الذى كان عاملاً حاسماً
فى نجاح عبور قناة السويس بعد ذلك فى اكتوبر ١٩٧٣.

● أمكن إعداد بطاريات مصرية مدربة على صواريخ "سام ٦".

تبقى نقطة هامة، ربما لا يعرفها كثيرون:

وهذه النقطة هى أن "بريجنيف " رجا جمال عبدالناصر أن يتم سحب الخبراء السوفييت المسئولين عن الدفاع عن العمق- قبل بدء المعركة- لأن وجودهم وقتها قد يثير تعقيدات لا حدود لها.

وافق جمال عبدالناصر.

وهكذا فإن سحب هؤلاء الخبراء قبل المعركة كان أمراً متفقاً عليه فى اجتماع موسكو فى أوائل سنة ١٩٧٠.

أقول ذلك وقد كنت بنفسى واحداً من شهود هذا الاجتماع، وكنت رابع أربعة من المصريين حضروا الاجتماع النهائى لهذه المحادثات، وقد حضرها كل أعضاء المكتب السياسى السوفيتى وكل ماريشالات الاتحاد السوفيتى، وكان المصريون الأربعة هم جمال عبدالناصر، والفريق محمد فوزى، والدكتور مراد غالب، وأنا.

٥- كان جمال عبد الناصر طول الوقت، وفى تلك الفترة الحرجة، شديد الحساسية لأى تجاوز يمكن أن يمس من قريب أو بعيد، فى الشكل أو المضمون، باستقلال مصر وحرية إرادتها :

● حين جاء الرئيس "نيكولاى بادجورنى " لمقابلة عبدالناصر فى شهر يونيو١٩٦٧، والنكسة بعد تنزف جراحها، أحسن جمال عبدالناصر أن "بادجورنى" يطلب إنشاء مركز مستقل للأسطول السوفيتى فى الإسكندرية، ووجه جمال عبدالناصر كلامه إلى "بادجورنى " على الناحية المقابلة له من مائدة المحادثات، وقال له بهدوء وحزم .

- " تسهيلات للأسطول السوفيتى، نعم... ولكن مركزا مستقلاً ، لا... معناها أنني أقبل قاعدة سوفييتية فى الإسكندرية، حتى ولو كان هذا المركز مبنى واحداً من حجرة واحدة ! ".

● وفى مرة أخرى فى زيارة يوليو سنة ١٩٧٠، دارت مناقشة أمامى بين بريجنيف وعبدالناصر...

كان عبدالناصر يطلب خبراء سوفييت، وكان بريجنيف مترددا، ثم قال بريجنيف ضمن ما قاله من حجج:

- إنني أخشى أن يستغل وجود عدد من الخبراء السوفييت فى مصر وأن يقول بعضهم إن وجودهم نوع من الضغط أو التدخل فى شئون مصر.

وقال جمال عبدالناصر ببساطة:

- إننى أنا الذى أطلبهم بنفسى... واذا أحسست فى يوم من الأيام أن وجودهم يشكل نوعاً من الضغط ، أو احتمالاً بتدخل منكم فى شئوننا الداخلية، فلن أتورع عن أن أطلب إلى الفريق فوزى أن يجمعهم كلهم على باخرة واحدة فى الإسكندرية ويشحنهم إليك بطريق البحر إلى "أوديسا".

ولم أنس حتى الآن تعبير الدهشة المرتسم على وجه بريجنيف.

● ثم مسألة أخرى لايصح أن تغيب عن بال أحد، تلك هي أن جمال عبدالناصر رفض باستمرار عقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتى.

وكان قوله " لبادجورنى " يوماً بالحرف.

- " إننى على استعداد لعقد معاهدة معكم بشرط واحد هو أن تحاربوا معنا جنباً إلى جنب... إذا فعلتم ذلك أوقع معاهدة، واذا لم تفعلوه- ولم تكونوا على استعداد له- فما بيننا الآن يكفى".

ولقد كان الرئيس السادات هو الذى عقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتي بعد ذلك ، وقد عقدها فى ظروف صعبة، فقد كان يشعر أنه مطالب بطمأنة الاتحاد السوفيتى بعد حوادث ١٥ مايو ١٩٧١، وتلك على أى حال قصة أخرى.

....

....

استأذن هنا أن أسمح لنفسى بأن أختلف مع الذين يرون أن قرار الرئيس أنور السادات بإخراج الخبراء السوفييت من مصر كان قراراً استعيدت به السيادة المصرية على الأرض المصرية.

وأقرب الأشياء إلى الحقيقة أن هذا القرار كان ممارسة لسيادة موجودة، ولم يكن استرداداً لسيادة مفقودة!

لقد كفاه أن يخطر السفير السوفيتى بما يريد يوم ٨ يوليو ١٩٧٢، وأن يطلب تنفيذه في ظرف عشرة أيام، ولم يناقشه السفير السوفيتي ولا ناقشه أحد فى موسكو.

وانما قام كبير الخبراء السوفييت بإخطار وزير الحربية وقتها بأن قرار الرئيس مستجاب ومطاع ، ثم وعده بتقديم تقرير يومي عن عملية ترحيلهم ، وبدلاً من أن تتم فى عشرة أيام تمت فعلاً فى ثمانية.

واذن فهى لم تكن معركة سيادة أو معركة استقلال.

كان قرار ممارسة سيادة، وكان قرار ممارسة استقلال.

ثم لقد أضيف بعد ذلك أن أنور السادات ليس بحاجة إلى بطولات تختلق أو تلفق، فالرجل له من سجله ما يكفيه ويغنيه، واذا لم يكن له غير قرار العبور لكفاه وأغناه!

□□□

ماذا بقى إذن من الدعاوى ضد جمال عبدالناصر فى أمر علاقاته بالسوفييت؟

لم يبق غيرالترهات..

كان يقال مثلاً :

- هم ملحدون... وسلاحهم ملحد!

ولست أعرف إذا كان الإيمان يشع من عيون الأمريكيين.. ونور الحق يلمع من سلاحهم؟!

لكني أعرف شيئاً واحداً :

- إن السلاح "الملحد" الذى عبرنا به قناة السويس إلى الشرق... أفضل ألف مرة من السلاح "غير الملحد" الذى عبرت به إسرائيل قناة السويس إلى الغرب!

الحديث الثاني عشر

نهاية المطاف

أصل إلى نهاية المطاف فى هذه السلسلة، وقد طالت عما قدّرت لها، ولكن القضايا شدّت بعضها بعضاً، وتداعت أحاديث من أحاديث !

وألخص فى الختام لكى يكون القصد واضحا، والطريق مستقيماً :

□□□

١- إن جمال عبدالناصر كان تجربة هائلة فى حياة هذه الأمة العربية، وفى زماننا المعاصر كله. ومثل كل تجربة هائلة- خصوصاً إذا كانت بالثورة- فإن التجربة تصبح حافلة، ذلك انها بالثورة تواجه بدايات جديدة، ثم إنها تعطى للتحديات التى تطرح نفسها عليها إجابات مختلفة، وهذا مجال الصواب والخطأ.

وقد أصاب جمال عبدالناصر وأخطأ، واعتقادى أن الإيجابى فى تجربته يرجح السلبى بكثير، ومحصلة أى حساب أمين تعطيه أكثر مما تأخذ منه بفارق كبير لصالحه، ويكفى لأى واحد منا أن يلقى نظره على خريطة المنطقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وموازين القوى فيها، قبل جمال عبدالناصر وبعده، ليرى الحقيقة ظاهرة وناصعة.

وعندما توزن أخطاء تجربة فى مثل حجم تجربة جمال عبدالناصر، فإن هذه التجربة لا يمكن أن تقاس إلا بأهدافها هى ، والا بظروفها هى ، والا بالتحديات التى واجهتها هى ، والا بالخيارات التى كانت مفتوحة أمامها، والا أصبح التقييم تعسفاً ، وانحدر التاريخ إلى مستوى المؤامرة!

ثم إنه لايستطيع أن يقضى فى مثل هذه التجربة ، ولاحتى بالتقييم هؤلاء الذين عادوا التجربة بمبادئها وحركتها وجماهيرها، فعادتهم هذه التجربة مبد أ وحركة وجماهير.

إن هؤلاء الأعداء لهم حق الكلام بالطبع، لايخنقه أحد فى حناجرهم، ولكن كلامهم يكون من موقع العداء وليس من موضع القضاء، ويجب أن يكون هذا واضحا لكى لاتختلط الصور.

إن المستعمرين الفرنسيين- ذوى الاقدام السوداء كما يسمونهم- لا يمكن أن يكونوا هم السلطة التى تقيم الثورة الجزائرية!

وحكومة "فيشى" التى استسلمت للألمان فى الحرب العالمية الثانية حاكمت "الجنرال ديجول "- الذى مثّل إرادة الشعب الفرنسي فى مقاومة النازي- وحكمت عليه بالخيانة العظمى ، وطلبت رأسه حياً أو ميتاً، ولكن هذا الحكم كان مهزلة على هامش التاريخ ولم يدخل فى حسابه!

وبنفس المعيار، فإن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية- وهى الدافع الحقيقي وراء الحملة الضارية على عبدالناصر اليوم- ليست هي القاضي الذى يبحث قضية الديمقراطية فى عصر عبد الناصر هؤلاء الملوثة أيديهم بالجريمة الوحشية فى شيلى- مثلاً- حيث اغتيل الرئيس الشرعى سلفادور أللينداى، وحيث قتل فى الشوارع في يوم واحد ٢٥ ألفاً من المواطنين ، وحيث اعتقل فى أسبوع واحد مائتا ألف من الناس وفق تقرير لجنة العدل الدولية- ليسوا قضاة الديمقراطية في تجربة عبدالناصر أو غيره.

نعم...

تجربة عبدالناصر ليست فوق النقد، بالعكس فإن نقدها بالتقييم مطلوب، لكن جامعة القاهرة مثلاً- مهما كانت أسباب قصورها- لا يمكن أن تحاكم من علب الليل فى شارع الهرم!

□□□

٣- إن الحملة الضاربة المعلنة ضد جمال عبدالناصر- بالباطل فى معظم ما تدّعى به- لن تضرّه بشىء.

فهو كإنسان بعيد عن هذا كله، فى رحاب الله لا يمسه من هذه الدنيا سوء.

وهو كتجربة ملك جماهير واسعة عاشتها معه وأعطته ما لم تعطه لأحد قبله، وما لم تعطه بعده لأحد. ولم تكن جماهيره عمياء ولا فاقدة لوعيها وهى تسير معه. لقد وجدت فى حركته أمانيها الضائعة ووجدت فى كلماته تعبيراً عن رغباتها المضغوطة ، ولم تكن العلاقة بين الاثنين علاقة الأمر والطاعة، وانما كانت علاقة حوار حر، لأن مجاله عقول الناس وقلوبهم ، وحيث لا سلطان لقوة على أعماق البشر إلا ما تشعر به وتقتنع.

وفى سياق هذا الحوار، فإن هذه الجماهير لم تتحفظ فى تأييدها له مرات، وتحفظت مرات أخرى، ورضيت عنه أحياناً، وعاتبته أحياناً أخرى، وغضبت عليه فى بعض المواقف، وغفرت له فى مواقف أخرى.

لقد أيدته بغير تحفظ مثلاً في حرب السويس، ثم تحفظت بعد الإنفصال.

ورضيت عنه فى ندائه للعدل الاجتماعي ، وعاتبته فى تجاوز السلطة.

وغضبت عليه سنة ١٩٦٧، وغفرت له فى حرب الاستنزاف سنة ١٩٦٩.

وهكذا، وهكذا علاقة حوار حر فى مسار تجربة تملكها جماهيرها.

ثم إن جمال عبدالناصر كتاريخ ملك أجيال قادمة تتاح لها الحقائق كلها، وتخلو نظرتها إلى الوقائع من انفعالات لحظة بعينها، سواء سادها الفرح أو سادها الحزن.

وكانت تلك على سبيل المثال- ومع اختلاف الظروف- قصة نابليون مع فرنسا.

لقد مات نابليون والهزيمة من حوله، ومات فى المنفى تحت ذل أعدائه.

ومضت سنوات وسنوات.

وعادت إليه فرنسا تضعه فى رأس القائمة من زعمائها الخالدين.

وأتذكر أديب فرنسا الكبير "أندريه مالرو" وهو يعقد هذه المقارنة بين "نابليون " و " عبدالناصر" ونحن معاً ذات يوم على مائدة غداء فى مطعم "الاسير" بباريس، وقال لى "مالرو":

- " ليست المسألة هى النصر العسكري أو الهزيمة العسكرية.. المسألة هى إرادة الأمة وتقديرها للبطل حين تجد نفسها فيه... ولقد وجدت أمتكم نفسها فى عبدالناصر بمقدار ماوجدت أمتنا نفسها فى نابليون مع اختلاف الظروف، وهذا هو الذى يبقى وغيره تكنسه الأيام ".

هكذا فإن الإنسان فى عبدالناصرمع ربه.

والتجربة لجماهيرها.

والتاريخ مسئولية أجيال قادمة.

واذن فالحملة الضاربة بعيدة عن أي تأثير حقيقى عليه، إنساناً أو تجربة أو تاريخاً .

□□□

٣- إن هذه الحملة إذا أثرت فتأثيرها على النظام نفسه بعد عبدالناصر.

إن الثورة لم تكن ثورتين، والنظام لم يكن نظامين، وهذا تعبير الرئيس أنور السادات نفسه.

والتأثير على النظام هنا يكون مزدوجاً :

- قسم منه في نظرة النظام إلى نفسه.
- وقسم منه فى نظرة آخرين إليه : بالذات جماهيره فى الداخل والخارج .

واذا تذكرنا أن الحملة الضارية الدائرة الآن هى حملة إدانة شاملة وليست عملية نقد موضوعي - إذن فإن التأتير المزدوج يمكن أن يحدث على النحو التالى :

■ إن النظام إذا أثرت فيه الإدانة الشاملة يجد نفسه فى الموقف الصعب، موقف الخجل إزاء ماضيه.

وهو هنا لا يصحح ولا يقوّم، ولكنه يغيّرويقلب رأساً على عقب.

يبحث عن مبادئ غير المبادئ، ومواقف غير المواقف.

وهو بهذا يفقد الثقة بنفسه... ويظل يفقد حتى يضيع منه أحساسه بشرعيته ذاتها.

■ واذا أثرت الإدانة الشاملة فى نظرة الآخرين إلى النظام- وبالذات جماهيره فى الخارج وفى الداخل- فماذا تفيده الثقة بالنفس، على فرض انها بقيت لديه. بقاؤه فى هذه الحالة مجرد مقدرة على التسلط ، وهذه مرهونة بوقت، لأنه ليست هناك قوة تستطيع الاحتفاظ إلى فترة طويلة بفروع الشجرة إذا انفصلت عن جذورها.

والغريب أن بعضهم يحاول أن يحصر الإدانة الشاملة فى عصر جمال عبدالناصر، ويبرئ منها أنور السادات، وذلك ظلم لأنور السادات نفسه قبل ظلمه لجمال عبدالناصر، لأنه يسلبه بعضاً من أروع منجزات ثورة ٢٣ يوليو التى هو اليوم وريثها الشرعى ورمزها الحى.

□□□

٤- إن الإدانة الشاملة على هذا النحو المجنون بالحقد تأخذ أيضاً من مصر رصيدها كله لدى أمتها العربية.

فهذه الأمة أمامها خياران لا ثالث لهما :

● إما أن تصدق ما يقال فى مصر الآن، واذن فإن كمها سوف يكون شديد القسوة على مصرمن سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٧٠.

● واما أن ترفض تصديق ما يقال فى مصرالآن. واذن فإن حكمها سوف يكون شديد القسوة على مصرمن سنة ١٩٧٠ إلى سنة ١٩٧٦.

والمؤكد أن التيار الغالب فى الأمة العربية- بحس صادق وضمير مستنير- رفض تصديق ما يقال فى مصر الآن، ومع ذلك فإنه فى نفس الوقت- محبة فى مصر واعتزازاً- رفض أن يكون حكمه الراهن عليها شديد القسوة.

واكتفت الأمة حتى الآن بنظرة التساؤل والدهشة والعتاب توجهها نحو ما يجرى فى مصر، تكاد لا تصدق حدوثه.

لم يبق زعيم عربي له قيمة إلاوتساءل واندهش وعاتب.

ولم تبق مؤسسة عربية لها قيمة إلاوتساءلت واندهشت وعاتبت.

ولم يبق شعب من شعوب الأمة العربية إلا وهو الآن يضرب كفاً بكف.

ولقد سمعت من وفود كثيرة رسمية وغير رسمية ، عالية المستوى وعادية المستوى، تعبيرات قاطعة فى دلالتها على ما تشعر به الأمة العربية.

● سمعتها بنفسى من هوارى بومدين فى الجزائر، يقول لى :

- " ما الذى تفعلونه بجمال عبدالناصر فى مصر الآن... وأى شيء بقى يحفز أى إنسان عربى ليعطى عمره لأمته... لقد اختلفنا واتفقنا معه كثيراً ، ولكننا لا نختلف ولا يختلف معنا أحد فى أنه كان أبرز عربى ظهرعلى الساحة هذا العصر.

واذا كانوا يفعلون به ما نراه اليوم... فماذا يفعلون بغيره ممن لم يعطوا عطاءه، ولم يكن لهم مثل دوره، وان حاولوا بكل ما فى وسعهم أن يجاهدوا ويناضلوا؟ ".

● قالها عبدالرحمن العتيقى وزير المالية الكويتى لوفد مصرى كان فى الكويت أخيراً :

- " إن آرائى كانت بعيدة عن آراء جمال عبدالناصر.

ولكن دعنا نكون صرحاء... إننى سمعت من بعضكم كلاماً عن التجربة الديمقراطية فى الكويت... وأقول لك بصراحة إن هذه التجربة ما كانت لتحدث لولا تأثير جمال عبدالناصر، فاتقوا الله فيه وفينا".

● بل قالها فى أحد القصور واحد من حملة السيوف لزائر مصرى كان يرافق الرئيس السادات فى رحلة عربية أخيرة له :

- " فى بعض هذه المناطق هنا ظل العبيد يباعون ويشترون في الأسواق . ولقد حصلنا على العتق والحرية عندما بدأ صوت جمال عبدالناصرينفذ من أسوار القصور! ".

واستطرد حامل السيف يقول:

- " أخاف على انور السادات منهم... أى ضمان أن لا يفعلوا به يوماً ، ما يفعلونه بجمال عبدالناصر اليوم!؟ ". [**حدث !**]

ثم ألفت النظر إلى واقعتين حدثتا أخيراً فى نطاق جامعة الدول العربية.

تقدمت مصر بمرشح لرئاسة منظمة اليونسكو العربية، منظمة الثقافة والفنون، واسهام مصر فى ميادينها مشهور، وكان مرشح مصرلرئاسة هذه المنظمة رجلاً من أكفأ رجالها وأقدرهم على الخدمة العامة، وهو الدكتورمحمد حسن الزيات.

وجرت الانتخابات.

ونال الدكتور الزيات صوتا واحداً، هو صوت مصر، وكانت بقية أصوات الدول العربية كلها لمرشح آخر.

وتكرر نفس المشهد فى منظمة التنمية الصناعية العربية، وكان المرشح لها وزيراً مصرياً سابقاً للصناعة، وكان ما حصل عليه- هو الآخر وللمرة الثانية - صوتا واحداً هو صوت مصر.

كيف حدث أن أعرض الكل عن المرشح المصرى فى الحالتين؟

كيف حدث أن مصر لم تتنبه إلى الوضع، ولم تسحب مرشحها فى الحالتين من باب الحرص، أو حتى من باب المداراة؟

وأخشى أن التصويت فى الحالتين لم يكن من قلة الثقة بكفاءة رجلين قدمتها مصر... بقدر ما كان نوعاً من العتاب بصفة عامة لمصر نفسها، ولا أزعم أن السبب هو حملة الإدانة الشاملة على جمال عبدالناصر

ولكنى أتصور أن هذه الحملة- إلى جانب عوامل أخرى- خلقت مناخاً معيناً من حول مصر، لا أظنه يتناسب مع قيمتها الحقيقية.

□□□

٥- وليس رصيد مصر العربى هو ما يجرى تبديده الآن، وانما هو رصيد مصر العالمى.

وأسأل على سبيل المثال:

- هل حاول أحد أن يتقصى أثر حملة الإدانة الشاملة ضد جمال عبدالناصر على إفريقيا؟

كل حركات التحرير فى القارة، وبغير استثناء، لم تعرف غيره زعيماً لحركة التحرر الشاملة ضد الاستعمار. حتى المستعمرات البرتغالية التى حصلت على استقلالها أخيراً " موزمبيق وأنجولا، بدأت نضالها هنا فى القاهرة وتحت حمايته.

وفى غير أفريقيا.

فى أمريكا اللاتينية مثلاً ؟

يلفت النظر حتى الآن أن الانظمة التى تساندها الولايات المتحدة لا تخشى شيئاً مثلما تخشى حركات فى جيوشها يطلقون عليها اسم " الناصريون! " !

ثم آسيا؟

هل تصدق الهند ما يقال الآن عن جمال عبدالناصرفى مصر؟

هل تصدق الصين؟

وأوروبا؟:

أوروبا فى الشرق كلها ترفضه من موسكو إلى بلجراد، وبغير استثناء.

وأوروبا فى الغرب كلها تتابع ما يقال مجرد متابعة إخبارية.

حتى أمريكا؟

وكانت مجلة "تايم " الأمريكية هى التى نشرت أخيراً تحقيقاً صحفياً مليئاً بعلامات الاستفهام، تتعجب كلها كيف أن جمال عبدالناصر أرفع ما يكون مكانة فى العالم العربي كله خارج مصر... وأما فى مصر فإن سمعته يجرى تمريغها فى التراب؟!

□□□

٦- وبعيداً عن هذا كله، فإن حملة الإدانة الشاملة بالطريقة التى تجرى بها الآن، يمكن أن تثير أسئلة فرعية فى مصر، وهى أسئلة فرعية اليوم ولكنها فى الغد يمكن أن نجئ بمضاعفات ليست فرعية.

سوف تبرز تساؤلات عديدة.

● هل هى محاولة لتكبيل إرادة الشعب المصرى فى "عقدة ذنب " ، يوقعون فى روعه أن ما يصورون له حدوثة بالأمس جرى باسم الحرية والاشتراكية والوحدة.

واذن تصرف جماهير الشعب نظرها عن هذه الأهداف.

فإذا كان هذا هو الثمن الذى دفع فيها كما يصورونه- إذن فإنه فادح إنسانياً ، يستحيل دفعه لأى هدف مهما كان.

واذن على الجماهير أن تسلّم إرادتها، وعليها أن تقبل استغلالها، وعليها أن تنكفئ وراء أسوار العزلة عن أمتها؟

هل هذا هو المقصود أو المطلوب؟

وهل هو ممكن؟ سياسياً أو أخلاقياً ؟

● ماذا لو فرغ صبر الناس وكان سؤالهم :

لقد اكتفينا من حكايات الماضى، ونحن نريد أن نسأل عن الحاضر والمستقبل؟

ثم إلى متى يصبح كل ما هو سلبى موروثاً مما قبل ١٥ مايو ١٩٧١، وكل ما هو إيجابى من معجزات ما تحقق بعد ١٥ مايو؟

إن كل حكم يصبح مسئولاًعن نفسه بعد فترة سماح معينة يستطيع فيها أن يتعلل بما ورث عن سابقه، وفترة السماح هذه عادة لا تطول عن سنة أو سنتين.

أليست مدة التخطيط فى العالم كله خمس سنوات فى العادة، تسأل فيها أى خطة عما حققته أولم تحققه حساباً مستقلاً ؟

أليست مدد الرؤساء تتراوح ما بين أربع سنوات، كما هى الحال فى أمريكا، إلى ست سنوات، كما هى الحال فى فرنسا، ثم يفترض بعد هذه المدة أن كل رئيس أخذ من الوقت ما يكفيه لكى يصنع ملامح عصره ويصبح مسئولا عنها؟

● ما هو الخيار المفتوح أمام المؤمنين إستراتيجيا بثورة ٢٣ يوليو، وفى جمال عبدالناصر، حتى وإن كانت لهم تحفظاتهم التكتيكية؟

هل يتحول هؤلاء إلى حركة تحت الأرض، أليس لها تنظيم يعبّرعنها، وليست لها منابرمفتوحة تنطق باسمها؟

وهل تصبح الناصرية حركة رفض لنظام يقوم على ثورة عبدالناصر و تجربته؟

من يقول بذلك ؟ ومن يرضاه؟

□□□

٧- ومع ذلك لنفتح الدفاتر.

ولنفتحها بأمانة وشرف، ولنحقق فى كل خط وزاوية، وليكن التحقيق عربياً شاملاً يتجاوز حدود مصر، فتجربة جمال عبدالناصر كانت تجربة عربية شاملة تجاوزت حدود مصر.

● لنحقق فى الرجل نفسه ونزاهته، وكل تصرف شخصى من تصرفاته، وهل كان عفا فى كل ما أتى ، أو أنه مال وانحرف؟

● لنحقق فى دعوته، وهل كانت تعبيراً أصيلاً عن ضمير الأمة ، أو أنها كانت فرضا فرض عليها بقهر السلطة، ولنسأل انفسنا أى سلطة قهر كانت له على جماهير الأمة العربية خارج حدود مصر، وكانت هذه الجماهير البعيدة عن نطاق سلطته هى الاحتياطى الإستراتيجى لحركته .

● لنحقق فى سياسته الخارجية، وهل استطاعت هذه السياسة أن تجعل من العرب قوة سياسية ضخمة تتصدر التيارات الفاعلة فى عصرها، كحركة الثورة الوطنية فى العالم، وحركة معاداة الاستعمار، وحركة التضامن الآسيوى الافريقي ، ومنطق الاستقلال وعدم الإنحياز، والاتجاه العام إلى مجتمع دولى يسوده السلام وتحكمه مبادئ القانون الدولى أو أن الرجل كان ضد التحرير وكان محالفا للاستعمار داعية إلى الطغيان فى مجتمع الدول؟

● لنحقق فى سياسته العربية، وهل كانت مع التاريخ أو كانت ضد التاريخ؟ وهل بادرأحدا بعداء أو أنه اضطرإلى معادة من عادوه لانهم وقفوا ضد التاريخ وحاولوا تعطيل مسيرة الأمة؟

● لنحقق فى سياسته الداخلية :

فى صيغة تحالف قوى الشعب العامل كبديل لدموية الصراع الطبقى، وفى الاستجابة لتحدّيات مرحلة الانتقال من مجتمع متخلف اقتصاديا واجتماعيا، وفى الإجراءات التى اضطرإلى اتخاذها لتكون للمجتمع المصرى بداية سليمة على طريق الانتقال.

وليكن التحقييق شاملاً فى تجربة التصنيع فى مصر، وفى تجربة تطوير الزراعة، وفى تجربة بناء قطاع عام يقود عملية التنمية، وفى تجربة التخطيط لذلك كله، وهل بلغت نسبة التنمية الشاملة فى معظم سنوات عصره ٦,٧% سنوياً ، وأى تجربة أخرى فى العالم الثالث غير تجربته بلغت هذا الحد من النجاح، رغم ما نعرف جميعاً من ضغوط الحوادث والظروف.

ليكن التحقيق شاملاً كذلك لسياسات التأميم، ولإجراءات الحراسة ، حالة حالة ، ولتنشر القوائم ومعها الأسباب.

وليكن التحقيق شاملاً أيضاً فى كل ما يقال عن عمليات الاعتقال، والفصل، والتعذيب، ودور المخابرات والمباحث ، وهل كانت مصر تحت حكمه صورة جديدة من ألبوم "العاصفة النازية"، أو أن هذه التجربة

لم تعتمد العنف إلا فى أقل القليل وفى سبيل أكبر الكبير من المبادئ والأهداف ، مع التسليم سلفاً باحتمال وجود تجاوز لابدّ من الحساب عنه والعقاب.

أزعم أن أى تحقيق منصف سوف يضع عبدالناصر حيث يجب أن يكون، وحيث وضعته جماهير الأمة العربية التى لم تكتف بالإعراض عما يجرى له فى مصر الآن - بل عزلت فلول الظلام التى حاولت أن تحاصر قبره وتنبشه، كما فعل فى تاريخ مصر القديم لصوص المقابر حتى فى أهرامات مصر الشامخة.

إن ما حدث في مصرلعبد الناصرلم يحدث لزعيم وقائد فى أى بلد من بلدان العالم إلا إذا كان هناك انقلاب لم يحدث قطعاً .

وعلى فرض أن انقلاباً مسلحاً كان قد حدث، فإنى أشك فى أن حملة اليوم على الأمس كان يمكن أن تصل إلى هذا العنف.

ولم يكن من قبيل الأخطاء السياسية ما حدث، ولكنه كانو أسوأ، فقد تعدّى أخطاء السياسة إلى السقوط الأخلاقى... إلى نوع من الإنتحار المعنوى .

وليست هذه هى مصر، ولا يمكن أن تكون هذه هى مصر... وهى بالفعل ليست مصر!

□□□

٨- ثم أقول في الختام

- لقد كانت تجربة جمال عبدالناصر، بإيجابياتها وسلبياتها، تجربة مصرية عربية إنسانية أصيلة.

ومناقشتها حق، لكن إدانتها الشاملة على هذا النحو الذى يجرى فى مصر، وبالوسائل والأساليب التى يتم بها ذلك فى مصر، باطل لا يصح.

ويبقى اعتقادى أنه لا يصح غيرالصحيح.

ثم أتوقف عند عبارة بدأت بها هذه السلسلة من الأحاديث وتلك هى أننى لا أعطى لأحد حق اتهامه، ولا أعطى لأحد شرف تبرئته.

تلك كلها حقوق للجماهير.. وللأمة... وللتاريخ.

محمد حسنين هيكل